رحلة في برقة
الجزء الأول

عزيز سوريال عطية

الكاتب المصري – العدد 6

تاريخ النشر: 1/ مارس، 1946م
رئيس التحرير: طه حسين
سنوات الإصدار:1945 إلى 1948م
نوعية الإصدار: شهرية
بلد الإصدار: مصر

رحلة فى برقة (١)

لمحة تاريخية

تاريخ برقة من الموضوعات التى شملها الغموض والإهمال بين جمهور المؤرخين، بالرغم من أن المصادر التاريخية تشير بوضوح إلى ما كان لهذا الإقليم من مجد تالد ومدنية عريقة فى العصور الغابرة. ويرجع أقدم عهدنا بظهور برقة على مسرح الحوادث فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى القرن السابع قبل الميلاد، حينما نزل جماعة من الإغريق من سكان جزيرة ثيرا من بحر إيجه على سواحل برقة، واستوطنوا بها، وأسسوا فى سنة ٦٤٠ ق. م. مدينة قورينا (الشحات)، وهى أول المدن الخمس التى اشتهرت فيما بعد باسم «بنطابوليس». بذلك تدخل برقة ضمن نطاق النفوذ الإغريقى الشرقى القديم فى الوقت الذى يلاحظ فيه أن طرابلس تذهب إلى الفينيقيين المقيمين غرباً من قرطاجنة. وبعدئذ تتوالى الأحداث والغزوات التى تعزز هذا الاتجاه الشرقى فى برقة منذ بداءة تاريخها. فغزوة قمبيز لمصر سنة ٥٢٥ ق. م. يتلوها خضوع برقة لسلطانه، وما حدث فى عهد قمبيز يتكرر بشكل أقوى وأوضح عند غزوة الإسكندر المقدونى لمصر

---

(١) أرى من واجبى وأنا فى صدد الكتابة لأول مرة عن هذه الرحلة أن أبدأ بتقديم شكرى وتقديرى لجميع من تفضلوا بمساعدتى خلال مدة إقامتى فى برقة، سواء فى ذلك رجال الحرب الذين يديرون دفة الحكم هنالك فى الوقت الحاضر، وإخواننا العرب الذين يعيشون اليوم فى أمن وطمأنينة. وأريد أن أخص بالذكر فى هذا المقام والى برقة البريجادير د. س. كامنج Brigadier D. C. Cumming الذى لم يأل جهداً فى تسهيل مهمتى بكل الوسائل الممكنة، فقد وضع تحت تصرفى عربة خاصة أتوجه بها حيثما شئت، وأرسل معى مرشداً من رجاله الممتازين الذين يعرفون برقة وآثارها حق المعرفة، كما أنه أنزلنى ضيفاً مكرماً فى نوادى ضباطه وفى دور الحكومة بالأقاليم حيثما حللت. وإنى لولا هذه العناية الفائقة لما استطعت أن أقوم فى أسبوعين فقط بما كان يصعب على القيام به فى شهور لو أننى اعتمدت على وسائل النقل البدائية فى بلاد واسعة الأرجاء لا تكتنفها الطرق الحديدية أو المواصلات السهلة الحديثة.

سنة ٣٣١ ق. م. ، وتظل برقة فى أيدى البطالسة إلى أن تنتقل هى ومصر ذاتها لحكم الرومان سنة ٣١ ق. م. والحكم الرومانى فى برقة فاتر فى مجمله ، لايصحبه ذلك النشاط التجارى والإنتاج الزراعى الذى كانت البلاد تمتاز به فى العصر السابق . وأهم حادث فى القرون المسيحية الأولى هو ثورة اليهود التى اندلع لهيبها فى طول البلاد وعرضها سنة ١١٥ ميلادية ، عندما قام نحو خمسين ألف يهودى مسلحين يقيمون فى برقة ، وانتهزوا فرصة غياب الإمبراطور تراجان وانشغاله فى حروبه الشرقية على حدود فارس ، فذبحوا الأهلين الآمنين، وأخذوا فى تخريب المدن الإغريقية الزاهرة تخريباً منتظماً لمدة عامين كاملين، حتى قيل إن برقة لم تستطع منذ تلك الحركة اليهودية العابثة استعادة مكانتها من العالم القديم فى القرون السابقة . وفى سنة ٢٩٧ م. عندما قسم دقلديانوس الإمبراطورية الرومانية إلى قسميها الشرقى والغربى ، تذهب برقة مع مصر إلى القسم الشرقى البيزنطى ، وتبقى فى حكم أباطرة القسطنطينية إلى أن تدخلها جحافل العرب الظافرة بقيادة عمرو بن العاص فى سنة ٦٤٢ م. ولكن الفتح العربى لم يغيّر كثيراً من عادات الناس وعقائدهم وطرق معاشهم فى برقة إلى نهاية القرن العاشر الميلادى ، غير أن قبائل البدو المعروفة باسم بنى هلال وبنى سليم تهاجر من الجزيرة إلى مصر فبرقة فى القرن الحادى عشر ، وتعتبر هجرتهم هذه أعظم حادث فى تاريخ برقة الوسيط ؛ لأن تلك القبائل العربية الخالصة تقيم هنالك ، وتستأصل العناصر الغريبة عنها من إغريق وغيرهم شيئاً فشيئاً كما تختلط بالسكان الأصليين من البربر الرحّالة وتمتصهم فى صلبها ، فينتج من ذلك عنصر تغلب عليه العروبة، وهو العنصر الذى ظل سائداً فى برقة حتى اليوم ، بالرغم من استيلاء الأتراك عليها عام ١٥١٧ ، وقيام أسرة القره منلى التركية التى استقلت بها فى سنة ١٧١١ . وفى سنة ١٨٣٥ يستردها السلطان مراد الثانى لسلطنته ، وفى سنة ١٩١١ تنتقل برقة مع طرابلس بمقتضى معاهدة لوزان إلى حكم الإيطاليين . إلا أن الحرب العظمى الأولى تحول دون دخول هؤلاء الحكام الجدد فى مستعمرتهم الإفريقية، ولا يتم استيلاء الإيطاليين الفعلى على طرابلس وبرقة إلا فى سنة ١٩٣٢ بعد كفاح طويل مجيد من أهل تلك البلاد . ولكن الحرب العالمية الثانية كما يعلم الخاص والعام تستأصل شأفة المستعمرين الإيطاليين من إفريقية ، وتغيّر مجرى تاريخ برقة إلى هدف لا يعرفه اليوم إلا الله .

التعريف ببرقة

من الأمور التى تدعو للأسف جهل الشرقيين ببرقة جهلا يكاد يكون تاما ؛ وأغلب الظن أن هذا الجهل يرجع إلى عاملين : الأول وقوف الإيطاليين أيام استعمارهم فى وجه الأجانب وردّهم عن زيارة ذلك القطر . والثانى إعراض الناس أنفسهم عن هذه الزيارة لاعتقاد شائع بأن برقة ليست إلا جزءاً من الصحراء الكبرى ، ومن ذا الذى يرغب فى زيارة الصحراء ؟ وربما يدهش القارئ عند ما نؤكد له بأن نضرة الأودية ، وخضرة الجبال ، وجمال الطبيعة ، وتنوع المناظر التى تأخذ بمجامع الألباب ، ورقة الهواء وصفائه ، تتجلّى فى ربوع برقة ، حتى إن المرتحل ليؤخذ خياله وهو بين جبالها ووهادها إلى أجمل ما فى أوربا الجنوبية من مرتفعات وأودية وسواحل تبهر الأنظار . وليس من المبالغة فى شئ ما قاله بعض الكتاب الأوربيين بأن طبيعة برقة وهواءها لا يختلفان عن طبيعة أواسط إيطاليا وهوائها ، على حين يصرّح بعض علماء طبقات الأرض بأن الجبل الأخضر الواقع بين خليج سرت وخليج السلوم إنما هو امتداد لجبال أوربا الجنوبية وإيطاليا على وجه أخص .

ويضاف إلى جهلنا بطبيعة برقة جهلنا بآثارها ؛ فقد اعتاد الناس على التفكير بأن ربوع برقة خالية من شواهد عزها القديم ورخائها التجارى العظيم فى العصور اليونانية الرومانية . وحقيقة الأمر أن آثار برقة ظلت معالمها مطموسة حتى دخلها الإيطاليون ، فأوفدوا لها الوفود والبعثات العلمية التى أخذت فى التنقيب وترميم الأبنية الأثرية المتداعية إلى آخر عهدهم بها . ومع أنهم كشفوا عن الكثير من تلك الآثار ، فلا زالت هنالك فرص هائلة لبعثات عدة فى المستقبل ؛ إذ لا تزال فى برقة مناطق أثرية واسعة لم تمسّها يد الحفارين بعد . ومهما يكن من شئ فإن برقة أصبحت الآن عامرة بالعاديات التى تستحق العناية والزيارة والبحث العلمى .

وخطأ آخر شائع بين الناس ، ألا وهو اعتبار برقة جزءاً من طرابلس بقدر ما هى فى نظرهم جزء من الصحراء اللوبية . وما هذا إلا نوع من الشطط الذى كانت تمليه الدعاية السياسية والظروف الاستعمارية القاسية التى ربطت

حتف برقة بطرابلس أيام الحكم الإيطالى ولكن جغرافية برقة تختلف كل الاختلاف عن جغرافية طرابلس ؛ كما أن تاريخ برقة غير تاريخ طرابلس ، وقبائل برقة غير قبائل طرابلس ؛ فهم أنقى عنصراً فى عروبتهم من أعراب طرابلس ؛ وأشد تمسكا ببداوتهم من غيرهم ، ولغتهم أقرب اللهجات إلى اللغة العربية الفصحى القديمة .

كل هذه المظاهر والخصال لمستها خلال رحلتى التى أضعها اليوم بين يدى القارئ الكريم على أشد ما نكون من الاختصار ، حرصاً على صفحات « الكاتب المصرى » وما تحتويه من جواهر الكلم ، وأملا فى إصدار رسالة أخرى مستقلة فى هذا الموضوع الذى يجب أن يكون له مكان فى مكتبة كل قارئ عربى .

الى طبرق ثم درنة

ركبت القطار الحربى الكبير الذى يبرح القاهرة فى يوم الأحد من كل أسبوع إلى طبرق ، فكانت رحلة ممتعة على ما فيها من عناء ، يشاهد فيها المسافر ذلك المسرح الخالد الذى دارت فيه رحى وقعة العلمين بالصحراء الغربية التى تمتد آثارها من العامرية إلى مرسى مطروح وما وراءها . ففى كل مكان يشاهد الانسان مناطق الأسلاك الشائكة التى تحد الجهات العامرة بالألغام ، وطوابير الدبابات العاطلة ، والمدافع والعربات المحطمة ، وخطوط الدفاع المنقورة فى الصخر وغير ذلك من المشاهد العديدة التى ساعدت على فوات الوقت سراعاً ؛ إذ أننا تركنا القاهرة قبيل التاسعة صباحاً ووصلنا العامرية فى منتصف الثالثة بعد الظهر ، وشاهدنا ما أمكن مشاهدته فى منطقة العلمين حتى أدركنا الليل ، ثم أصبح الصباح علينا فيما وراء الحدود المصرية . وقبيل ظهر الاثنين وصل بنا القطار مرتفعات طبرق الشرقية ، وعلى ذلك تكون هذه المرحلة الأولى قد استغرقت حوالى ٢٧ ساعة من القاهرة إلى طبرق بالقطار .

هنالك قابلنى مندوب الوالى ، وكان ترحابه بى حاتمياً . فبعد أن تناولت غذاء عربياً على مائدته قمنا للطواف بالمدينة ، فإذا بشوارعها تكاد تكون خاوية ، وبيوتها فى جلتها مهدمة ، إلا ما أصلحه رجال الإدارة والحكومة لاقامتهم .

وطبرق تقع على هضبتين يفصل بينهما وادٍ غير سحيق ، يهبط منه الواحد شمالا إلى خليج واسع عميق هو ميناء المدينة ، ولا يرى فيه الإنسان غير المراكب الغارقة من فعل الغارات الجوية . ويبدأ من الطرف الجنوبى للوادى ذلك الطريق العظيم الذى عبّده الإيطاليون من طبرق إلى حدود تونس ، ويبلغ طوله نحو ألفى كيلو متر . أما الهضبة الشرقيــة التى بها محطة طبرق فهى منطقة حرام تشغلها الجنود ويعمّها عتاد الحرب . وتقع المدينة أو بالأحرى ما بقى منها على الهضبة الشرقية . وليس بطبرق من آثار قديمة تذكر سوى أجزاء تافهة من الحائط الرومانى ومخزن المياه البيزنطى وهو كبير وعميق فى شكل مستطيل منقور فى الصخور الجنوبية ليجتمع فيه ماء المطر للاستعمال وقت التحاريق .

بعدئذٍ ركبت السيّارة الحربية التى خصّصها الوالى لخدمتى ، واتجهت صوب مدينة درنة على بعد مائتى كيلومتر من طبرق ، وفى هــذه المرحلة من الطريق تكثر على جانبيه آثار موقعة إفريقية الشمالية بين الحلفاء وجنود المحور ، من طوابير مصفحة عاطلة ، إلى هيا كل طائرات محترقة ، وعربات مقــلوبة ، ومدافع قواعدها مهشمة ، وغير ذلك من أدوات القتال . ولاتنس مقابر القتلى يراها الرائى بين آونة وأخرى . وأول هذه المقابر وأوسعها مقبرة العلمين ، تظهر للمسافر من القطار على المرتفعات الشمالية فى شكل ثلاث غابات كبيرة من الصلبان البيضاء ، أولها لقتلى الإنجليز ، والثانية للألمان ، والثالثة للإيطاليين ، ويرفرف عليها جميعاً فى أعلى النقط علم أبيض كبير .

وأهم ما لفت نظرى فى هذا القسم الأول من الرحلة هو عظمة ذلك الطريق الكبير الذى عبّده موسولينى فى عرض البلاد ، ثم جعله مركزاً مبدئيّـاً للنشاط الاقتصادى والزراعى فى برقة ، فأسس المزارع على جانبيه ، وابتنى الاسترلحات لضمان راحة المسافرين على مسافات تبلغ نحو عشرين كيلو متراً ، ولـكنها أصبحت خاوية على عروشها ، إذ انتزع الأعراب الرحّل أبوابهـا ونوافذها ، وحملوا ما كان بها من أثاث .

وبعد مسيرة أربع ساعات انحرف السائق بالسيارة عن الطريق الرئيسية شمالا تجاه البحر . فلما وصلنا حافة المرتفعات الداخلية وإذا بنا نطلّ على منظر من أبدع ما رأته العين : يهبط الجبل فجأة إلى سهل شديد الخضرة ، ينتهى

بخليج شديد الزرقة ، قامت عليه مدينة بيوتها ناصعة البياض ، تحيط بها الحدائق الغناء . وقد شغف الطليان بدرنة فى أيامهم ، ووصفوها لجمالها بأنها جوهرة البحر الأبيض ، وزارها موسولينى فى زمانه ، وآثار الترحيب به شاخصة فى أعلى الجبل حيث نُقشتْ فى حروف كبيرة جبّارة العبارة W il Duce « ليحى الزعيم » .

ليس فى درنة مخلّفات تاريخية قديمة تستوقف السائح ، ولكن جمال المدينة وحسن تنسيقها ، وصفاء حماماتها البحرية ، وتوفير سبل الراحة فى منازلها ، وكثرة حدائقها ، ونظافة شوارعها ، وطيب هوائها ، جعلها محط رحال السائحين الإيطاليين فى الماضى .

وقد شاهدت بها قباب المرابطين ، وزرت سوقها وتتكوّن من عدة شوارع ضيقة متراصة مرصوفة بالحجارة ومسقوفة بالخشب كعامة الأسواق الشرقية فى أغلب مدن إفريقية الشمالية . وتعدّ دار الحاكم فيها آية فى فن المعمار ، وربما كانت المبالغة فى تجميلها راجعة إلى إعدادها لاستقبال موسولينى .

قورينا

قورينا أو سيرين أو الشحات كما يسميها عرب برقة اليوم تقع على مسافة تبلغ نحو ثمانين كيلومتر غرب درنة على مقربة من الطريق الرئيسى ، وبينها وبين ساحل البحر عشرة كيلو مترات حيث توجد ميناؤها أبولونيا التى تدعى الآن مرسى سوسة .

وقورينا عاصمة برقة القديمة فى العصور اليونانية الرومانية ، كما أنها أهم مركز للعاديات فى تلك البلاد ، وقد تعدل أعظم المدن والعواصم الأثرية مثل الأقصر وأثينا وروما إلى حد بعيد ، غير أن نصيبها من التخريب كان أدهى وأشد ، نظراً لما أنزله اليهود بها فى ثورتهم الكاسحة سنة ١١٥ ـ ١١٧ م . حين ذبحوا سكانها ، وهدموا معابدها ومبانيها . ولقد حاول الإمبراطور هادريان أن يعيد لها مكانتها الأولى ، فبادر ببنائها من جديد ، ولكن جهوده لم تثمر كثيراً ، إذ أن قورينا التى كانت مركزاً من مراكز الفن والثقافة

الإغريقية [1] تأخذ بالرغم من ذلك فى التدهور السريع ، ويهجرها من بقى من سكانها القلائل ، حتى إنك لتجدها وقد أضحت خراباً بلقعاً فى غضون القرن السادس الميلادى .

نشأت المدينة القديمة ، كما يتضح من آثارها ، على جبلين يفصل بينهما وادٍ ضيق غير عميق ، تكتنفه الطريق الحديثة الوحيدة التى قامت على جانبيها قرية الشحات اليوم . ويمكن تقسيم آثار قورينا إلى مجموعات ثلاث ، الأولى منها على قلة الجبل الغربى حيث الأكروبول ، وأهم مشتملاته قبر الملك باتوس مؤسس قورينا (٦٤٠ ق . م .) ، والسوق الكبيرة (الفوروم) التى تضارع فى اتساعها ودقة بنيانها أسواق روما القديمة ، ومعبد جوبيتر ، وآخر لعبادة قياصرة الرومان (قيصرون) ، وعدد من القصور التى كشف عنها حديثاً ، نخص بالذكر من بينها قصر جانوس العظيم [2] من مؤسسات العهد الميلادى الأول ، ويمتاز إلى جانب دقة الفن والمعمار بأمثلة نادرة من الفسيفساء التى ازدانت بها أرض حجراته ؛ فهذه حجرة تتوسطها رأس ميدوسة ، وتلك أخرى صُوِّرت فى أركانها رسوم آدمية تمثل الفصول الأربعة ، كلها ناطقة فى ثوبها القشيب من الألوان الزاهية .

أما المجموعة الثانية فهى على الجبل الشرقى ، وتشمل المعبد العظيم للإله زيوس ، وملعب المدينة ، وبقايا كنيسة كبيرة من العصر المسيحى . غير أن الجانب من المدينة قد عفت أكثر رسومه ، ولم يبذل الأثريون والحفارون للآن جهداً مذكوراً للكشف عن معالمه الدارسة .

---

(١) من بين الأسماء الخالدة التى أنجبتها قورينا فى عالم الفلسفة والأدب والعلوم الاغريقية نذكر على وجه التمثيل اريستيب (٤٣٥ — ٣٦٠ ق. م.) Aristippes تلميذ سقراط ومؤسس مدرسة قورينا الفلسفية ، وقلياق (٣١٠ — ٢٢٥ ق . م .) Callimachus ، الشاعر اليونانى وايراتوسثين (٢٧٦ — ١٩٥ ق. م.) Enatosthenes أول جغرافى قاس محيط الكرة الأرضية ، وكارنياد (٢١٤ — ١٢٩ ق. م.) Carneades مؤسس الأكادمية الجديدة فى أثينا ، والأسقف المسيحي سينيزيوس (٣٧٥ — ٤١٦ م.) Synesius آخر فلاسفة الأفلاطونية الحديثة .

(٢) إن جانوس هذا كان كبير كهنة الاله أبللو ، ويزعم بعضهم أنه كان من أثرياء تجار قورينا وربما جمع بين الصناعتين بدليل الثروة والرفاهية التى فى قصره ، ويظهر أنه عاش فى القرن الأول وأوائل القرن الثانى الميلادى .

والمجموعة الثالثة واقعة عند مخرج الوادى حيث توجد هضبة تطل على السهل المنبسط عند قاعدة الجبلين . وعلى تلك الهضبة بنى القدماء من الاغريق معبداً للإلـه أبُللو على مقربة من مغارة سميت باسم الإله نفسه ، ومنها تتدفق المياه الجارية من بطن الجبل ليل نهار ، وكان الناس يهرعون للاستشفاء بها من جميع أقطار العالم القديم . وإلى جانب معبـد أبُللو يوجد معبد أرتميس وهو صغير . وفى ناحيته الجنوبية حوض السباحة والحمامات العامة ، وفى أحد أبهائها مجموعة من التماثيل الفنية الرائعة ، يتوسطها تمثال كبير من الرخام للإسكندر المقدونى وهو نادر ، ورأس دقيقة الصنع للإلـه زيوس . وفى الجهة الشمالية وراء المعبد عدة أبنية ، أهمها دار التمثيل (هيبودروم) من العصر الرومانى وهى صغيرة بعض الشئ ولـكنها من أحسن الأمثلة فى هذا الصدد .

ويحيط بكل هذه الآثار التى تمثل مدينة الأحياء حائط حصين كثيف طوله نحو ثلاث كيلوا مترات . وخارج هـذا الحائط من كل النواحى ، تقع مدينة الأموات التى تفوق جميع مثيلاتها فى العالم اليونانى الرومانى القديم من حيث الـكمّ والـكيف على السواء . والناظر من الهضبة الغربية إلى سطح الجبل الشرقى يرى المئات بل الألوف من المقابر المنقورة فى الصخر طبقات فوق طبقات من أعلى الجبل إلى أسفل السهل ، أكثرها قد كشف ، ولـكن بعضها بدون شـك لم يكشف عنه بعد . غير أن محتويات تلك القبور نُهبت إلا التوابيت الحجرية الثقيلة ، ولم يبق من النقوش الفنية على جدرانها سوى اليسير. ومن الظواهر الغريبة أن عرب تلك المنطقة وضعوا يدهم على أغلب تلك القبور ليستعملوها منازل لهم ومُراحاً لقطعانهم فى الليل .

وأبولونيا أو مرسى سوسة ، وهى كما ذكرنا ميناء قورينا ، على مسيرة عشرة كيلومترات إلى الشمال الشرقى منها ، وليس فيها من الآثار سوى كنيستين من العصر المسيحى البيزنطى ، إحداها ترجع إلى القرن الخامس الميلادى ، وأغلب الظن أن عُمُدَها الـكثيرة قد أخذت من بناء أو معبد وثنى أقدم عهداً . وفيها أمثلة حسنة من الفسيفساء ذات الرسوم الحيوانية والنباتية . أما الثانية فقد بناها الإمبراطور جستنيان حوالى عام ٥٣٥ م وجاء بأعمدتها الرخامية من محجره الشهير فى پروكونوسوس على شاطىء الدردنيل ، وحالتها أقل جودة من حالة الـكنيسة الأولى لطغيان البحر عليها . أما المدينة الحديثة فهى أكبر بكثير من قرية

الشحات ، تأنّق الطليان فى تزيين ميادينها الفسيحة وشوارعها المستقيمة الواسعة بالأشجار الباسقة والنوافير الجميلة التى تتفجر منها المياه الجارية. ولا أدرى لماذا نزع الطليـان إلى طلاء منازلها باللون الأحمر الوردى على خلاف عادتهم فى طلاء مساكنهم فى بقية المدن بإقليم برقة باللون الأبيض الناصع .

ذكريات من الشحات

إذا ذكرتُ قورينا أو الشحات فلا أذكر معها آثارها فحسب ، وإنما أذكر رحلتى إليها من درنة وزيارتى رأس الهلال ومنزل بالبو الصيفى فى الطريق ، كما أذكر البيت الذى خصصته الإدارة لسكناى ، وأذكر يوماً قضيته مع مشايخ عربان قبيلة الحاسة ، وآخر فى زيارة قرية البيضاء .

أما رأس الهلال فالطريق المؤدية لها تتفرّع من الطريق الرئيسية شمالا عند مكان يدعى لملودة ، وطول الطريق الفرعية عشرة كيلومترات أسسها الجنرال بالبو أيام صولته خصيصاً للوصول إلى البقعة التى انتقاها لـكى تكون مقره الصيفى . ولا نبالغ إذا قلنـا إن المنطقة التى يخترقها المسافر فى طريقه إلى رأس الهلال لا تقل فى جمالها عن مناطق السياحة المعروفة بأوربا ، حتى إن المتأمل فى جبالها وأوديتهـا ليسبح به الخيال إلى جبال الغابة السوداء أو جبـال ويلز أو منطقة البحيرات الإيطالية أو سـاحل الريفييرا . أما منزل بالبو — وهو اليوم قاع صفصف وأثر بعد عين ـ فإن موضعه آية من آيات الله فى جمال الطبيعة وجلالها ، ابتناه صاحبه على رأس جبل صغير متفرع من سلسلة الجبـال العربية عند فم الوادى على غرار حصون القرون الوسطى التى طالما يراها المرء فى سياحاته بوادى الرين ؛ يهبط منه البصر إلى سهل سحيق تتوسطه قرية رأس الهلال بين المزارع فى حللها السندسية ، ويظهر البحر وراءها فى زرقة عجيبة لم أشاهد مثيلها إلا من الطائرة على ارتفاع كبير . هنا تتجلى بحق روعة الطبيعة وهدوءها ، وهنا مهبط للوحى والشعر ، وهنا رقة الهواء وصفاؤه .

وقرية الشحات ذاتها تذكـرنى تماماً بقرى ويلز الشمالية ، كما يذكـرنى المنزل الذى أسكننى الحاكم إياه بمنزل كنت أقطنه صيفاً فى إحدى تلك القرى النائية ، فهو مثله على جبل عال أطل منـه على وادٍ فسيح تحدّه سلسلة أخرى من

المرتفعات والتلال ، وجميعها مكسوّة بالخضرة التى تريح البصر والنفس والذهن المضنى ، وكلاهما خالد للهدوء ، ويتخلل البدن فيهما ذاك الهواء الجبلى المنعش ، غير أن منزلى بالشحات امتاز عن نظيره فى ويلز بحديقة تحوى من أشجار الفاكهة ومن الزهور ألواناً شتى لا نعرفها فى تلك المناطق الشمالية الباردة .

ولا أنسى يوماً قضيته مع المتصرّف (أو الحاكم) بين مشايخ قبيلة عربان الحاسة داخل الجبل الأخضر فى إحدى المزارع التى كان الإيطاليون قد عمّروها ثم هجروها أثناء الحرب[1] . فبينما نحن فى طريقنا بين تلك المزارع ، لاحظت وجود خيام منصوبة بجوار البيوت المشيّدة التى ابتناها المستعمرون الإيطاليون فى الماضى واستولى عليها العرب فى الحاضر . فلما سألت عن ذلك قيل لى بكل بساطة إن العرب يفضّلون البقاء فى خيامهم ويتركون المنازل للسعى (أى الماشية) فى الليل . وإن دل هذا الموقف العجيب على شىء فإنما يدل على احتفاظ عرب برقة بحياة البداوة القديمة أكثر من إخوانهم الذين نزحوا من جزيرتهم الأصلية للحضر شرقاً وغرباً وشمالاً فتحضروا بحضارة أوطانهم الجديدة وذهبت بداوتهم هباء منثوراً .

---

(١) مشروع الاستعمار الزراعى الايطالى لبرقة من الموضوعات التى جلبت عليهم سخط العالم العربى ، لأنهم انتزعوا أكثر تلك الأراضى بالعنف ، وأسكنوا فيها أسرات المستعمرات ، وبنوا لهم فيها البيوت والمزارع . وفيما يلى بيان الأراضى الصالحة للزراعة مما استولى عليه المستعمرون الايطاليون ما بين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٣١ :

٤٤١ ر٤٣	هكتاراً	اشتريت من العرب
٨٤٤ ر٨	«	تابعة أصلا للحكومة (وهى الدومين)
٠٠٠ ر٦	«	صودرت من الثوار العرب
٢٢٥ ر٦٢	«	صودرت من الزوايا السنوسية
٥١٠ ر١٢٠	«	المجموع

والهكتار الواحد يساوى حوالى فدانين ونصف ، فتكون جملة ما استولى عليه الايطاليون من الأراضى الزراعية يوازى أكثر من ثلثمائة ألف فدان ، بنوا عليها ما بين سنة ١٩٣٣ وسنة ١٩٣٩ من البيوت والمزارع المعدة على أحسن طراز أوربى ١٨١٥ منزل ومزرعة ، يراها المسافر على جانبى الطريق الرئيسية فى الجبل الأخضر ، وبين المنزل والمنزل نحو أربعة كيلومترات للزراعة ، وتنقسم هذه المزارع إلى مجموعات ، لكل مجموعة فى إقليمها الخاص شركة تعاونية لها مركز مشيد ، يشترى منها الزراع حاجاتهم ، ويودعونها محاصيلهم ، ويلحق ببناء الشركة صالة كبرى يقيمون فيها حفلاتهم ونشاطهم الاجتماعى ، وكنيسة يصلى فيها المصلون يوم الأحد من كل أسبوع .

وصلنا الدار التى اجتمع فيها للقائنا مشايخ الحاسة ، وتناولنا طعام الغداء ، ولم يكن مع الأسف عربيًّا خالصاً كما كنت أرجو ولم يكن أوربيًّا بحتاً ، وإنما أراد صاحب الدار أن يسر أنظارنا بما ظنه يتفق وذوقنا الحضرى ، فقدم لنا الحساء فالدجاج والخضر مع الخبز الأوربى ثم من الفاكهة قدراً من البرقوق والكمثرى والعنب ، وهى بلا شك من الأشجار التى زرعها سلفه الإيطالى ، لجنى ثمارها خلفه العربى . وكم كنت أود أن أجد نفسى جالساً القرفصاء فى صحن الدار مع هؤلاء المشايخ حول نار متقدة نتناول من عليها شواء الماعز والخراف فنأكله كما كانوا يأكلون .

وإذا كان رجائى قد خاب فى أمر البداوة القديمة عند الغداء فقد جاء ما أصلح خاطرى فى المراسيم البدوية الحديثة المتعلّقة بعملية صنع الشاى وتقديمه للزائرين ، إذ جاء الابن الأكبر لصاحب الدار ، وجلس عند باب الحجرة ، وأمامه موقد عليه إناء فيه ماء ، وبجواره إناءان أخريان وثلاثة أطباق من القش المجدول ، على الواحد سكر أسمر ناعم ، وعلى الثانى شاى ، وعلى الثالث ربطة كبيرة من عيدان النعناع الأخضر . وبدأت صناعة الشاى فى حركات سريعة بحذق ومهارة ، فهو يصب الماء المغلى على الشاى من إناء إلى إناء ثم يعيد صبه من جديد ، وغايته من ذلك أن يركّز الشاى إلى أقصى حدود التركيز ؛ وهو إذ يضع السكر مع الشاى بحفنته فى نفس الإناء يتذوّقه فى قدح من الأقداح الصغيرة التى ستدار علينا ، ثم يعيد الكرّة ثانية وثانية إلى أن يضبط مرارة الشاى فحلاوته فدرجة نعطيره ، ذلك لأن التقاليد العربية البدوية تقضى بأن يدار الشاى على الزوّار مرات ثلاثاً : الأولى يكون فيها مر المذاق ، والثانية حلواً ، والثالثة يضاف إلى الشاى فيها النعناع والسكر لدرجة الإشباع . وهكذا أديرت علينا عشرات الأقداح الصغيرة دورات ثلاثاً ، الواحدة تلو الأخرى نتبادل فيها نفس الأكواب على اختلاط بعضها ببعض بغير كلفة . فإذا ما انتهينا من شرب الشاى الحلو المعطّر ، أصبحنا فى حل للرحيل . ولكننا قبل أن نعود أدراجنا شاهدنا بعض حجرات المنزل والاسطبلات والمخازن المنظمة التى بناها الإيطاليون على مثال أحدث المزارع الأوربية ، وكذلك البئر التى يحبسون فيها مياه الأمطار ، والحديقة العامرة بالكروم وأشجار الفاكهة والرياحين ، ثم ركبنا وركب معنا شيخ مشايخ العربان لتوديعنا إلى بابنا فى الشحات .

وأخيراً وليس آخرا أذكر زيارة قرية البيضا على مقربة من الشحات على الطريق المؤدى غرباً إلى المرج . وسيذكر التاريخ هذه القرية لسببين : الأول أنها كانت مركز قيادة رومل ، والبيت الذى كان يدير منه دفة الهجوم الإفريقى قائم يسكنه اليوم السيد إدريس زعيم السنوسية . والسبب الثانى هو أن موسوليبى عند زيارته برقة قبيل هجوم المحور على مصر جمع مشايخ عربان المنطقة فى الساحة الكبرى بتلك القرية ليخطب فيهم خطبته المشهورة فى كلمة واحدة لاثانى لها ، فصعد مدرجاً عالياً بنى خصيصاً لهذا الغرض — وهو موجود إلى اليوم — وأخرج من جيبه منديلا ولوّح به لسامعيه مشيراً إليه صارخاً « مصر » ثم وضع المنديل فى أحد أكمامه وانصرف ، كأنما الاستيلاء على مصر فى نظره من السهولة بقدر استخراج ذلك المنديل من جيبه ووضعه فى كمه . فسبحان مخلف الظنون !

عزيز سوريال عطية